آثار بيسان (١)

لا يزور بيسان زائر الا ادرك ما لموقعها الطبيعي من الجمال والجلال . لكن الذين لهم اطلاع على التاريخ القديم وعلى الآثار لا يكتفون بذلك بل يدركون ايضاً ما لمركزها المنيع من الشأن الكبير في النزاع الدائم الذي كان قائماً للسيادة على طريق الاتصال بين الشرق والغرب . ولم يخطر لاحد ان يحقق هل بيسان هذه هي بيت شين المذكورة في العهد القديم ومدينة سكيثوبوليس التي كانت معروفة في العهدين اليوناني والروماني ولا ذكرت في كتب التاريخ القديم الا نادراً وكان ذكرها موجزاً لا يستطيع المؤرخ ان يبني عليه حكماً من حيث قدمها ومقامها في التاريخ . وزد على ذلك ان كثيرين من السيّاح الذين كانوا يقصدون اليها اشاعوا المذمة عن اهلها فقالوا انهم لؤماء سرقة وذموا هواءها فقالوا ان حرارته لا تطاق فصار السيّاح بعدهم لا يمكثون فيها الا قليلاً فبقيت زمناً طويلاً لا يبالي بامرها احد

وحينما تجددت الهمة وزاد الاهتمام بتاريخ الاراضي المقدسة منذ نصف قرن كانت بيسان قد صارت من املاك السلطان عبد الحميد الخاصة ولم يكن ثمة من سبيل للحفر فيها والوقوف على تاريخها . على ان الحكومة الانكليزية اعلنت بعد الحرب ان كل الاماكن الاثرية في فلسطين ملك لحكومة البلاد واباحت الحفر المنظم فيها

وقد ثبت لبعثة الحفر من قبل متحف فلادلفيا ان مصاعب المعيشة في بيسان مستطاع تذليلها وانهُ في الامكان مزاولة الحفر حتى في فصل الصيف . وممّا سهّل علينا الحفر كثيراً ان وجود بيسان سابقاً في املاك السلطان عبد الحميد منع السكان من بناء البيوت او المدافن على انقاض الآثار القديمة . وقد حفر السكان بعض الحجارة من الانقاض القديمة فاستعملوها في بناء بيوتهم وشوارع بلدتهم ولكن هذا العمل اتلف الطبقة العليا من الانقاض وبقيت الآثار المهمة سالمة من التلف

لو اردنا ان نحفر كل البقعة التي كانت البلدة قائمة عليها في العهدين الروماني والبزنطي لصعب ذلك جداً لاتساع العمل لذلك اكتفينا الآن بقصر اعمالنا على تل الحصن والمدافن التي الى الضفة الشمالية من نهر جالود اذ في هذا التل حصون

(١) ترجمناها مما بعث به الينا الدكتور فنر عن اعمال بعثة متحف فيلادلفيا في بيسان

البلدة في العصور المتأخرة وبقايا القسم المسوّر منها من عهد الكنعانيين . فحفرنا اولاً خندقاً للاستكشاف في الجهة الشرقية فعثرنا على طبقات كثيرة بعضها فوق بعض احدثها عهداً الطبقة العليا التي من ايام العرب حوالي سنة ٩٠٠ ميلادية واقدمها الطبقة السفلى وفيها مبانٍ من طوب وجدران من حجارة فظ اذان يستدل منها ان هذه الطبقة من عصر البرونز الاول حوالي الى سنة قبل الميلاد والعمق بين هاتين الطبقتين نحو ١١ متراً وليس فيها اثر للصخر

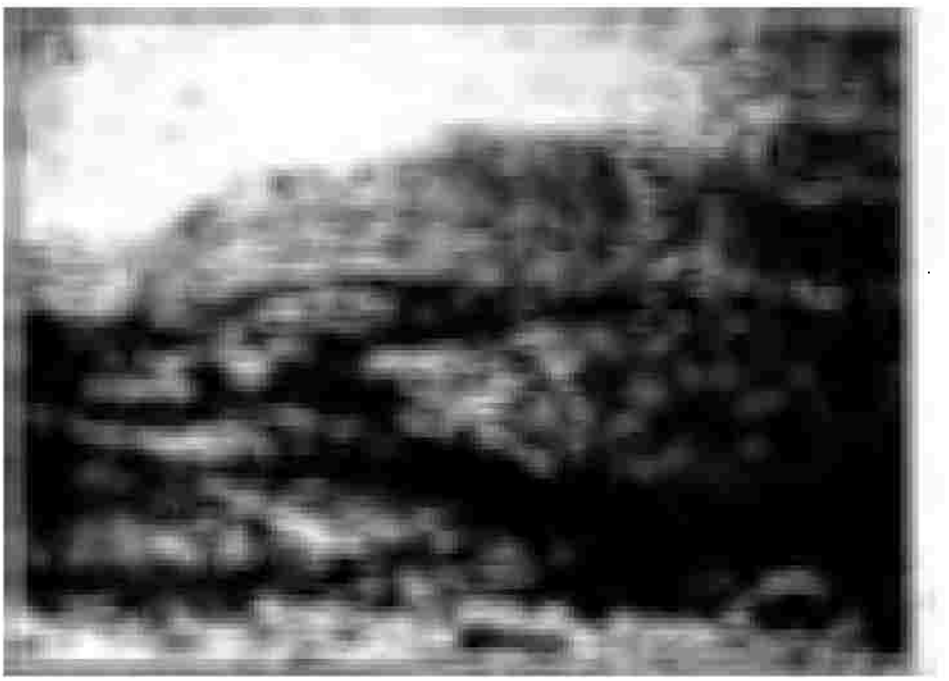

منظر تل الحصن من الجهة الغربية

ولوضع تاريخ وافٍ لهذا التل وجب علينا ان نحفر كل طبقة من هذه الطبقات ونرسم ما كان فيها من الابنية وما تحويه من الآثار ثم نحفر الطبقة التي تحتها وهلم جرًّا . وقد حفرنا ستة امتار الى تسعة امتار حتى نهاية الصيف الماضي فكشف عن ثمانية عصور مختلفة في تاريخ ذلك التل . واقدم العصور التي بلغناها في حفرنا العصر المصري فقد عثرنا فيه على حصن قديم مبني بالطوب (اللبن) يرجع تاريخهُ الى ايام ستي الاول ١٣١٣ — ١٢٩٣ ق . م . وبعد ان حفرنا قليلاً في ارض غرفة

من غرف هذا الحصن الى عمق متر عثرنا على جدران تحتية من بناء يشبهُ الحصن الاول ولكنهُ يختلف في اتجاههِ وحفرنا بئراً في وسط هذا الحصن عمقها نحو ١٣ متراً دون ان نعثر على صخر ولكن عثرنا على جدران من الطوب والحرسانة . وعليهِ نرى انهُ من الراجح ان الحفر في هذا التل تحت الطبقة المصرية يكون في طبقات متراكمة من الطوب يرجع تاريخها الى نحو الفي سنة قبل المسيح وقد يرجع تاريخ اقدمها الى العصر الحجري الحديث الذي قام على اكمة صخرية هي نواة التل المكوّن من انقاض المدن المختلفة التي بنيت عليهِ وترك ردمها بعضهُ فوق بعض طبقات متراكمة

وللحصن المصري شكل منتظم وفيهِ مجاميع من غرف صغيرة وممرات طويلة ودور غير مسقوفة واكثر الجدار مبني بالطوب الكبير طول كل طوبة منهُ ٥٤ سنتمتراً وعرضها ٣٥ سنتمتراً وثخنها ١٥ سنتمتراً . وبعض الجدران لا يزال قائماً وعلوهُ نحو ٣ امتار والطوب لاصق بعضهُ ببعض بالطين والجدران مطلية من الداخل بالجير (الكلس) والطفال . وفي ارض الغرفة طبقة سميكة من السمنت تحتها طبقة من الحرسانة . والى الشمال من الساحة الكبرى ممر في آخرهِ سلم من الطوب يوصل الى سطح الحصن او الى دور آخر كان مبنياً فوق الدور الاول . اما المدخل العام فكان قريباً من الزاوية الشمالية الغربية . ومما يؤسف لهُ ان جانباً من البناء مشوه في هذه الناحية لانهُ حفر لتأسيس مبانٍ قامت على انقاضهِ لكن عتبة الباب لا تزال في مكانها وعلى جانبيها قطعتان من قائمتي الباب وهما من حجر النشف (بسلط) مصقولتان ومتداخلتان في بناء الجدار على الجانبين . وفي الجانب الشمالي من الحصن مخازن وجدنا فيها كثيراً من قطع الخوابي

والى الغرب من الساحة الكبرى شاهدان لذكرى ستي الاول ورعمسيس الثاني وتمثال رعمسيس الثالث من حجر النشف مثلهُ جالساً وكان الشاهدان قد وقعا على وجههما لكن قاعدتيهما لا تزالان في مكانيهما . اما التمثال فكان في الجهة الشرقية من المرفأة مواجهاً لشاهد ستي الاول . وكنا قد عثرنا على شاهد آخر لستي الاول منذ ثلاث سنوات تقريباً على عمق متر ونصف متر مطموراً في الردم على مترين من الشاهدين المذكورين والى جنوبهما . والظاهر ان هذا الشاهد الثالث كان تابعاً للشاهدين الآخرين ولكن نقل من محلهِ واستعمل عتبة لاحد الابواب فحطم رأسهُ وما عليهِ من الصور والكتابات اما الكتابة الباقية عليهِ فغير واضحة لم نستطع ان

نقرأ اكثر من ثلثيها بعد جهد كبير. وفي هذه الكتابة اسماء بعض القبائل التي غلبها ستي الاول في حروبه الاخيرة على ما نرجح. اما شاهد ستي الاول فكان في مشكاة (كوة غير نافذة) في الجانب الغربي من الغرفة وكان هذا الشاهد قد تكسّر قطعاً ثلاثاً حين وقوعه لكنّ ما حفر فيه من الصور والكتابة كان لا يزال على تمام الوضوح. في القسم الاعلى من الشاهد صورة شاب مرتدٍ ثوباً قصيراً وعلى رأسه كفة فيها رأس الثعبان والشاب يقدم تقدمة الى المعبود هو رُس. اما الكتابة فوصف موجز لمعركة موضعية حدثت في السنة الاولى من حكم ستي الاول (١٣١٣) عدا ما فيها من المقدمات المألوفة. ويظهر من هذه الكتابة انهُ جاء رسول من حاكم بيت شين يستنجد الملك ستي على صاحب حماة «الوغد» الذي الّف عصبة مع رجال بلاّ وهي بلدة ازاء بيت شين على الضفة الاخرى من نهر الاردن. والظاهر انهُ حين بلغت هذه الرسالة الى ستي كان قد وصل الى مجدّو بجيوشه التي سيّرها في غزوته الاولى لسورية وفلسطين وكان قد حطّ رحالهُ في الطرف الغربي من وادي جزريل ليستريح قبل متابعة السير الى بلاد الحثيين في الشمال. فاغتنم هذه الفرصة السانحة وامر جيشهُ بالزحف فارسل فرقتين منهُ الى الجانب الشرقي من الاردن وارسل فرقة رع لاحتلال بيت شين وفرقة آمن لمحاربة حماة وفرقة ستخ الى الشمال الغربي اي الى الاكام الجنوبية من سلسلة جبال لبنان. وكان لا بدّ من حركته الاخيرة هذه ليظهر قوتهُ امام الحثيين بينما جيوشهُ منهمكة بالحرب في الشرق حفظاً لمؤخرة جيشه من هجمات الحثيين عليه على حين غرّة وخصوصاً لانهم كانوا يعلمون الغاية التي يرمي اليها. واذا فرضنا ان جيش ستي الاول كان مؤلفاً من الفرق التي تألف منها جيش ابيه وخلفه رعمسيس الثاني في معركة قادش فالكتابة السابقة لا تذكر لنا شيئاً عن فرقة تاه والظاهر انها بقيت متخلفة في مجدّو للمحافظة على المواصلات مع مصر. والسطر الاخير من الكتابة يذكر ان المعركة انتهت في يوم واحد بفوز ستي الاول فوزاً تاماً. وقد عثرنا في هذه الكتابة على اسم بيت شين مرتين وطريقة كتابتها أيّدت لنا انها ذات المدينة المذكورة في مراسلات تل العمرنة. ولذلك فلا بدّ من العثور على آثار تحتمس الثالث الذي كان قبل ذلك بمائة وثلاثين سنة اذا استؤنف الحفر في هذا الحصن

وما دبّ الفساد في حكومة مصر واخذت قوتها تضعف في اواخر الدولة الثامنة

عشرة خرج الحصن من قبضة المصريين ولكن سكان البلد بقوا يذكرون بسالة جنود مصر وقوتهم وكانوا يستنجدون بهم وقت الضيق. على ان ستي الاول استطاع بنصره الباهر ان يرجع الحصن الى مصر وحصّنهُ من جديد ليستخدمهُ مركزاً حربياً في البلاد التي على الضفة الاخرى من نهر الاردن

القسم الاعلى من شاهد الملك رعمسيس الثاني

اما شاهد رعمسيس الثاني فكان قائماً الى جنب شاهد ستي الاول والدهِ ويظهر انهم حفروا الجدار قليلاً ليفسحوا لهُ محلاً كافياً اذ كان حجمهُ اكبر من حجم الاول. اما الكتابة عليهِ فهي اخصر من الكتابة التي حفرت بها الكتابة على شاهد ستي . وهي ٢٤ سطراً كلها مدحٌ واطراء الا انهُ جاء فيها انهُ « كالاسد بين الشباه » او « كالنسر بين الطيور » وان اعداءهُ « تطير امامهُ كالريش في العاصفة » وهذه هي عبارات المديح التي كان رعمسيس مولعاً بحفرها على آثارهِ. وهناك سطر واحد كبير الشأن بين هذه المدائح الشعرية وذلك ان رعمسيس استخدم رجالاً من الساميين في بناء المدينة المدعوة

باسمه في مصر السفلى . الا نجد في هذا السطر الدليل المشهود لاثبات ما جاء في التوراة عن اشتغال بني اسرائيل في مصر حينما ارغمهم رؤساؤهم على بناء مدينتي فيثوم ورعمسيس وهذا نفسهُ دليل لا يردّ على ان رعمسيس الثاني هو فرعون الخروج

والكتابة على شاهد رعمسيس تذكر انهُ اعدَّ مكاناً خاصاً لجنودهِ بعد موتهم . وقد يكون هذا « المكان الفخم » مدافن بيسان نفسها . فيها حفرنا جانباً من المدافن الشمالية المتسعة عثرنا على مدافن كثيرة يتراوح تاريخها بين ١٢٠٠ — ١٠٠٠ ق . م الى العصر البزنطي وفيها نواويس من الخزف . وقد عثرنا على هذه النواويس في مدافن صخرية مستديرة او خارجها وشكلها مستطيل مستدير وكل منها لهُ غطاء عند طرفهِ الاوسع محفور عليهِ رأس انسان . اما نواويس النساء فالحفر عليها اقرب الى الشكل الطبيعي من الحفر على نواويس الرجال والشعور العارية تدل على اثر الفن المصري فيها . ورؤوس الرجال ضخمة حليقة اللحى بارزة الانوف مثقوبة الآذان . والدليل انهم كانوا من ذوي المقام الرفيع لباس الرأس المزخرف . وقد عثرنا في هذه النواويس على حلى مصرية كثيرة منها عقود من زهر اللوتس وثمانين وقرود ورأس صولجان في شكل رأس ثعبان من البرنز . وتاريخ هذه النواويس يرجع الى نحو ١٢٠٠ — ١٠٠٠ سنة ق.م وقد ثبت انها مدافن لغرباء كان لهم علاقة متينة بمصر فالاستنتاج الطبيعي من المقدمات السابقة ان المدفونين كانوا جنوداً مصريين من المستزفة والجنود المستأجرون ثابت وجودهم في الجيوش المصرية منذ ايام رعمسيس الثاني

اما تمثال رعمسيس الثالث فكسور الى قطعتين من نصفهِ والقطعة العليا كانت ملقاة على الارض قرب القاعدة وعلى كل من كتفي التمثال خرطوش (ختم) الملك وليس عليهِ كتابات ولا صور اخرى . والتمثال ليس دقيق الصنعة والظاهر انهُ من صنع احد الحفارين في بيت شين . وقبل ان نختم الكلام على الآثار المصرية في بيسان لا بدَّ لنا من ذكر قطعة من شاهد عثرنا عليها في كنيسة بزنطية وهي محفورة حفراً دقيقاً ولكن لم نجد حتى الآن ما يكفي لمعرفتها

فالآثار المتقدمة تدل دلالة واضحة ان البلدة بقيت في قبضة المصريين من سنة ١٣٩٣ الى سنة ١١٦٧ ق . م تقريباً . حينئذٍ كان النفوذ المصري في فلسطين قد اخذ يتقلص واخذ المصريون واعداؤهم الحثيون يتقهقرون امام قوى الفلسطينيين الذين كان لهم شأن كبير في تاريخ الاراضي المقدسة